ابراهيم افندى رجل فى الاربعين من عمره ، يعمل رئيسا لقلم الحسابات باحدى مصالح الحكومة ، وهو رجل نشط ، متحمس لعمله ، عادة يصل الى مكتبه فى السابعة صباحا ، وحين يدخل الموظفون القلم يستقبلهم فى سحريه قائلا :

« أخيرا حضر السيادة ، وانا أعمل هنا من ساعتين ، زيادة على العمل الذى أخذه معى الى البيت .. آح .. هذا الكسل سيقضى عليكم .. » وقد تمر عليه الساعات وهو مستغرق تماما فى عمله ، ثم يرفع رأسه فجأة ويدير عينيه فى الحجرة الواسعة وحين يرى الموظفين منهمكين فى عملهم ، يبتسم فى رضى وغبطة ويضرب المكتب بقبضة يده ويصيح :

« ليس هناك أروع من عمل الحسابات .. لقد تعبت تماما ، اريد كوبا من الشاى » ثم ينهض فجأة ، ويذهب بنفسه الى البوفيه ليحضر كوب الشاى .

علاقته برؤسائه عادية ، فهم يثقون به ، ويتركون له التصرف بحرية فى كثير من الامور غير انهم ، لسبب ما ، كانوا يشعرون بالاشمئزاز لحماسه الشديد فى العمل .

ومنذ أيام ، عين موظف جديد فى القلم ، حين رآه ابراهيم افندى شعر انه لن يحبه قط ، وقد فكر فى ذلك الامر فترة من الوقت ، وخرج بعبارة كان

يرددها لنفسه حين يقع بصره عليه ـ « العمل ... عمل ... والعواطف الشخصية لا مكان لها هنا ... » .

ويوسف ـ الموظف الجديد ـ شاب ممتلىء الجسم ، هادىء ، له عينان واسعتان تتسمان فى رقة . قال عنه عزيز افندى ، وهو موظف مخمور بالقلم ـ

« حقا انك لا تسمع صوتا لخطواته ، ولكنه حين يدخل الحجرة تشعر باحساس غامض ينبهك انه قد حضر ، ان فى عينيه وميضا غريبا يجذبك اليه ... »

ومرت ايام ، وشعر ابراهيم افندى ان شيئا غير طبيعى يجرى فى القلم .

فعادة ـ حين تأتيه النوبات المجانية للحديث ـ كان الموظفون يرفعون رؤوسهم ، وينصتون اليه وقد يبتسم البعض له ، ولكنه هذه الأيام يجد الموظفين لا يهتمون بحديثه ، بل انه قد يدق المكتب بمبضة يده ، ويصيح معلنا اكتشافه لخطأ فى الحسابات ، ولكنهم يطلون فى عدم مبالاتهم وكأنهم لا يشعرون بوجوده بينهم .

وفكر ابراهيم افندى انهم لابد قد سئموا الحديث عن الحسابات ، ويريدونه ان يتحدث عن أمور أخرى كما يفعل يوسف معهم ، فقال لهم ذات يوم ـ هل يستطيع احدكم ان يعطينى حلا لهذا الموضوع ؟ انا اريد شراء « فريجيدير » ولكن معى نقود ، فماذا أفعل ؟

قال احد الموظفين وبدت عرت ـ « وما دمت لا تملك نقودا ، فلماذا تشترى « فريجيدير » .

واحس ابراهيم افندى بالضيق ، وقال فى شىء من المرح المتكلف ـ « ولكن روحى تريد « الفريجيدير » ولن تتركنى استريح حتى أشتريها ... » .

قال عرت بنفس البرة الباردة ـ « اذن اشتريها .

فصاح ابراهيم وقد شعر ان الحديث يخرج عن نطاقه المعتاد ـ قلت لك ليس معى نقود » .

قال عرت ـ اذن لا تشتريها » .

واحمر وجه ابراهيم افندى ونهض من مقعده وصاح فى غضب ـ « اريد ان اعرف السر فى طريقتكم هذه ... » .

رفع الموظفون رؤوسهم ... وتساءل عرت ـ أية طريقة تعنى ؟

قال ابراهيم افندى وذراعاه تلوحان فى الهواء ـ اعنى طريقتكم المتدنية تاحيتى ... » .

فقال عرت ـ ولكنا لا نعاديك

قال ابراهيم افندى ، وكأنه لم يقتنع بعد ـ « كلا ، انا اعرف انكم تتطرون لى بعداء .. » .

رد يوسف ضاحكا ـ « ولماذا يعادونك .. ؟ » .

سكت ابراهيم افندى ، وراح ينظر الى عينى يوسف الواسعتين ، ثم عاد الى مقعده فى صمت ، منذ أيام وهو يفكر فى أن يدخل فى نقاش مع يوسف أمام

الموظفين ، ويريهم كيف يمكنه ان يسخر منه ومن آرائه .. ولكنه في كل مرة يصمم ان يفعل ذلك يحس انه لا يستطيع ان يقول شيئا .

وذات يوم .. وكان عرت قد تشاجر مع احد الموظفين في قلم المراجعة .. دخل ابراهيم افندي المكتب ووجهه محتقن بالغضب .. قال في حدة : — يا سيد عرت .. علمت انك تمديت على شوقي افندي رئيس المراجعة .. وارجو ان تنهض الآن لتعتذر اليه ... »

قال عرت في حنق : — وما شانك انت ؟

— شاني ؟ .. اني لا احب ان يحدث هذا من احد الموظفين عندي .. خاصة مع رئيس قسم كشوقي افندي .

— هذا امر لا يهمك في شيء .

— كيف تتكلم هكذا ؟ .. اني احذرك من هذا الطريق الذي تسير فيه هذه الايام .. وللمرة الاخيرة اقول لك يجب ان تعتذر للرجل .

— لن اعتذر .

وتدخل يوسف قائلا : — « انا اعرف يا عرت ما دمت قد اخطأت في حق انسان فمن الافضل ان تعتذر اليه .. وصدقني انك ستحرر نفسك حينئذ من شيء ثقيل » .

قال عرت : — انه ليس بانسان .. بل حيوان هي .

قال يوسف : — انا معك ان العناء صفة قبيحة .. ولكن كل منا هي في ناحية ما .

فقال عرت : — وما دخلي انا لاتحمل منه هذا العناء والجهل ؟ »

واحس ابراهيم افندي ان دمه قد اظلم فجاة ، حتى انه فقد القدرة على تتبع المناقشة الى النهاية ولم يعد في تفكيره سوى شيء واحد .. « اذا لم يعتذر عرت لشوقي افندي فانه سيرفع مذكرة بما حدث .. » وحين قرر عرت ان يعتذر لشوقي افندي ، لم يدهشه ذلك . ولكن الذي اثار دهشته حقا . هو ذلك التغير الغريب الذي بدا على وجه عرت .. كان واثقا في انه رآه من قبل ، ولكنه لا يذكر اين او متى ؟

قال له عرت : — اني ذاهب لاعتذر اليه .. ولكن برهتي انا .

فرد عليه دون وعي : — لا يهم .. لا يهم ما دمت ستعتذر .

قال يوسف بعد خروج عرت : — ان لم تقع شخصا بما تراه حقا .. فمن الخطأ ان تجبره على ذلك .. لانك ستصبح على غير حق » .

وتذكر ابراهيم فجاة انه راى نفس التغير الغريب من قبل على وجوه الموظفين حين يتحدثون ليوسف .. وتحدث مع عزيز في ذلك الامر .

فقال له عزيز افندي وهو يبتسم : — « لعلك تقصد ذلك التغير من الاشراق والراحة الذي يبدو على وجوههم .. سأقول لك السبب في ذلك .. ان يوسف يا رئيسي العزيز .. لا ادري كيف اشرح لك الامر .. انه كمن يدق على عقولهم .. كلا ارجوك لا تنظر الى

بشك هكذا .. فانا كما كنت من قبل .. لم اتغير .. انى عجوز .. لم يعد من السهل ايقاظ عقلى .. ولو ان احدهم دق عليه لنهض .. حقا انه قد يستيقظ .. ولكن لوقت قصير .. يظل فيه على الناس تدهشه .. ثم يعود لاغفاءته الطويلة .. انه اعتاد على ذلك حتى اصبح من غير المعقول ان يفكر فى غير ذلك » .

قال ابراهيم : ـ انك عجوز محترف » .

فقال عزيز .. وقد ازدادت ابتسامته : ـ ربما .. ولكن .. هل رايت كيف يحبه الموظفون .. ويصغون لحديثه .. هل رايت كيف حفظوا مكانتهم حتى التصقت بمكتبه »

ـ يبدو انى اصبحت رئيسا لجماعة من المخبولين » .

قهقه عزيز راسه ـ وتعمل ذلك عادة حين يضحك ـ وربت على ذراع ابراهيم قائلا : ـ ليسوا جميعا .. فانا مثلا لا اريد عن كونى متفرجا يرى ما يجرى امامه .. ولكنه راض عن حياته .. خاصة وانى سأحال الى المعاش بعد سنة .. وعندك ايضا بطرس .. واذا اردت رايى .. فانه رغم صغر سنه يبدو كالنهر المذعور .. اما الآخرون .. فكما ترى ..

وفكر ابراهيم .. وهو ينقر باصبعه على المكتب : ـ « يبدو انى لم اعد افهم شيئا .. انهم كما تقول عزيز يتحدون عنى واحدا واحدا .. لا ادرى كيف يجدهم هذا اللعين اليه .. لم يبق من اعتمد عليه سوى بطرس وعزيز .. انهما يحق شخصان واعيان .. لا يهملان عملهما .. ورئيسهما .. يجب ان افعل شيئا .. ولا اترك الحال يسوء اكثر من ذلك » .

وذات صباح . وكان الموظفون يصغون الى يوسف وهو يتحدث ، بينما جلس عزيز خلف مكتبه ، يبتسم من حين لآخر ، وبطرس بالقرب منه .. يرقب كل شىء فى المكتب ، والقلم يرتعش فى يده ، وعلى وجهه تعبير قلق .. كانما يتوقع حدوث شىء .. وابراهيم الغندى صامت .. لم يكن يعمل : بل كان يتابع حديث يوسف ، ويدير فى راسه خطة الهجوم .. وفجاة دق المكتب بعصبة يده وصاح : ـ

« هذا امر لا يحتمل .. انكم تهملون

عملكم ... وتصعوننى فى موقف حرج مع الرؤساء .. ان هـذا .. اوه .. سأقدم مذكرة الى سيادة المراقب .. ليس هناك غير ذلك » .

قال احد الموظفين ـ وماذا تظنه سيفعل ؟

واحمر وجه ابراهيم ـ « اوه .. انه درجة اولى .. يفعل الكثير .. هناك جزاء بالخصم من مرتبك .. وهناك الفصل من الخدمة .. والطرد الى جهنم » .

ثم ضحك فى عصبية .. وراح يكتب المذكرة .

وخيم الصمت على المكتب .. وهبت نسمة خفيفة من الهواء .. بعثرت الاوراق امام عزيز احمد ذى ، فانحنى يجمعها .. ولا يدرى لماذا شعر بالرعشة فى ان يضحك .. غير أن وجه ابراهيم العاصف ، جعله يمسك فجأة عن الضحك .. وحين رفع رأسه ورأى وجه بطرس .. قال فى دهشة ـ بطرس .. ماذا حدث ؟ هل تشعر بشىء ؟

وانحنى بطرس قائلا ـ هيه .. ماذا ؟ .. ماذا تقول ؟

ـ بعض الماء .. احضروا له قليلا من الماء » .

ـ ولماذا .. انى .. انى

ـ ان وجهك يا بنى شاحب .. دع القلم من يدك .. لا تعمل شيئا .. وارح جسدك تماما » .

ـ ولكن .. انى بخير ـ

والتفت ابراهيم افندى وقال لعزيز فى حزم ـ دعه يعمل .. انه ليس منهم » .

فقال عزيز ـ ولكن .. انظر الى وجهه .

فصاح ابراهيم فى غضب ـ .. قلت لك دعه يعمل .. انه بخير » .

ثم نظر الى بطرس وقال له فى صوت حاول أن يجعله هادئا ـ هذه المذكرة ضدهم .. هم فقط .. هل فهمت ؟ »

وحنى بطرس رأسه ، كأنما يخفى الفرحة التى بدت فجأة على وجهه . بينما كانت أصابعه تعبث فى شعره بعصبية .

ومر بعض الوقت .. ونهض ابراهيم

افندى ، وخرج من المكتب كالزوبعة ، ورفع عزيز رأسه ، ونظر الى يوسف ولدهشته ، وجده لا يزال يبتسم .

ومضت ساعتان . ثم فتح باب المكتب ودخل المراقب العام ، وخلفه ابراهيم افندى ، وذراعاه معقودتان على صدره ، وقد بدا على وجهه طابع التحفز المقبل على الخطير من الامور .

ورفع الموظفون رؤوسهم ، وحاول بعضهم ان يهب واقفا ، وحين وجد الآخرين ما يزالون جالسين ، بدا عليه شيء من التردد ، وظل هو واقفا وخدعه محنى على المكتب ، وكأنه لا يدرى ما يفعله بعد ذلك ، فى حين نهض عزيز افندى وهو يحكم الحاكمة حول جسده ، غير ان المراقب اشار اليه ان يجلس .. فراحت قامته تتراجع شيئا فشيئا على المقعد ، فى وضع قلق ، مترقب ، وابتسامة باهتة .. لا لون لها تملأ وجهه ، غير انه فى براعة بعد عليها استطاع ان يكسب وجهه التعبير المشرق اللائق بمثل هذه المناسبة انه لم يقابل المراقب فى حياته سوى خمس مرات ، وفى كل مرة كان يخرج منها من عنده ، كان يجتاحه شعور غريب من الزهو ، والارتياح ، وبطل بعض الوقت يفكر فى حماس ، انه انسان طيب ، ومستقيم ، وانه سيعلى بأولاده ويعلمهم ، ولو تصادف وقابله احد رملائه ، فانه يهلل فى وجهه ، — يا سعادة البه .. اوه يا سعادة البه » .

ويروح يعض عليه مقابلته مع المراقب.

وان المراقب شق فمه ، وبطلب منه ان يفعل كذا .. وكذا .. ودائما كان يعقب هذه النوبة شعور آخر مفعم بالمرارة والاستسلام ، فيظل بقية النهار صامتا .. مقطب الجبين .

قال المراقب فى صوت هادىء : — سمعت أن اشياء غريبة تحدث هنا . »

ثم سعل .. وصمت .

قال ابراهيم افندى : — « يا سعادة البه .. انى اترك الامر بين يديك .. فانا لم اعد احتمل اكثر من ذلك .

قال المراقب : — اعرف .. اعرف .. اسكت انت .. »

وانعقد ابراهيم افندى ، واسند ظهره لحافة مكتبه .

قال عزت : — انا لا اعرف عن اى شيء تتحدث ؟

قال المراقب وهو يخرج منديلا ابيض من جيبه : — كلا يا بنى .. انك تعرف جيدا ماذا اقصد »

ثم تمخط ، ونظف طاقتى انفه من الداخل .. وظل المنديل فى يده ..

— « يبدو انى اصبت بالبرد .. آ .. آ .. آتشى .. بالله .. انى اصبت فعلا .. لعنة الله عليكم .. انكم دائما السبب فى كل شيء .. افهموا جيدا .. انى مرهق بالعمل .. وهذه المسئولية الضخمة على عاتقى .. ثم اسمع انكم تهملون عملكم .. لتقضوا الوقت فى حديث فارغ .. لن ينفعكم .. بل سيضركم » .

وشعر فجأة بالرغبة فى السخرية ،

وهذا شيء معروف عنه في المصلحة .

قال وقد تقوس حاجباه في حنق :

مثل هذا الحديث الذي يثير اهتمامكم .. لابد انه مثلا عن النساء والزواج .. والحقيقة انه موضوع مثير وانتم معذورون .. ان لي ابنة في السادسة عشر من عمره .. امسكت به يختص الخادمة في دورة المياه .. » .

قاطعه يوسف قائلا : « ولكن .. انهم يقومون بعملهم كاملا .. ولو تحدثوا في شيء .. فهذا لانهم يبحثون عن ..

صاح المراقب في غضب : اخرس اولا .. من انت ؟ .. وماذا تعمل هنا ؟

ـ انا يوسف .. الموظف الجديد .

ـ ها .. ها .. اذن فهو انت الذي يتحدثون عنه .. يوسف من يعقوب عليه السلام .. اليس كذلك ؟

لعنة الله عليك .. ماذا تظن بنفسك ؟ .. هل انت حقا ابن يعقوب ؟ » .

وابتسم يوسف .. وراحت عيناه تحملقان في المراقب في صمت .. واحمر وجه المراقب وصاح : « هذا الرد اللعين .. اسمع يا سيد يوسف .. انك تحشر انفك دائما فيما لا يعنيك .. والرؤساء غير راضين عنك .. وحديثك مع الموظفين يعطل العمل .. لذلك قررنا .. ومعذرة .. فالعمل قبل اي شيء آخر .. قررنا ابعادك عن المكتب .. ولم نجد غير « الدفترخانة » .. فهذا تسلم عملك هناك .. » .

قال يوسف وقد شحب وجهه : ـ هل تقول الدفترخانة ؟ » .

ـ نعم .. وستجد هناك دفاتر وسجلات من ايام نوح .. انتهى العمل فيها .. تستطيع في شغف على الارفف .. لتحكي لها عن الحرية والكرامة .. دون ان تعطل عمل غيرك ؟

ـ هذا عمل طيب .. كل ما اود قوله .. هو ان الموظفين هنا لا يهملون عملهم كما تظن .. » .

ـ اعرف .. اعرف .. ولكن العمل ليس كل شيء .. هناك الاحترام والاخلاق .. ان بعضهم كان يقابلني فلا يحييني .. ويمط رقبته الى اعلى وكانه يتحداني .. هل تصدق ان هذا حدث بعد مجيئك هنا ؟ .. وابراهيم افندي يقول انهم اصبحوا فجأة يكرهونه .. ويعادونه .. على العموم انك لست شقيا تماما .. ارجو ان تنفذ ما قلته لك .. » .

واستدار المراقب ، وقبل ان يخرج التفت نحو يوسف وقال : « لقد سمعت اشياء طيبة عنك .. ارجو ان يعمل الآخرون مثلك » .

طفح الدم فجأة على وجه يوسف ، وارتبك ، وتصبب العرق من جبينه ولم يقل شيئا .

ومرت برهة ، والموظفون يحملقون في صمت نحو باب المكتب ، وكانهم يتوقعون عودة المراقب مرة اخرى . ثم نهض عزت ونصق على الارض .. وقال : ـ « افتحوا هذه النوافذ .. ان الرائحة تملأ الحجرة » قال ابراهيم في غضب : ـ ياسيد عزت .. انا لا اسمح لك بان تتكلم بهذه الطريقة عن .. »

انفجر عزت صائحا : ـ لا اسمح .. لا اسمح .. لا اسمح .. لقد مرضت .. وسئمت كل شيء .. هل تفهم أ » .

وفى اليوم التالى .. حضر ابراهيم افندى الى المصلحة .. وحين راى مكتب يوسف خاليا . والموظفين منهمكين فى عملهم ، شعر ان كل شيء قد اصبح على ما يرام ، وعاوده حماسه القديم للعمل ، وبدت الصحة على وجهه .. وكأنه تخلص من هم ثقيل .

وبعد بعض الوقت .. ثم بعض احد الموظفين ، وحين رفع ابراهيم رأسه فى تساؤل .. قال الموظف : ـ انى ذاهب لاشرب » .

وبعد برهة ، نهض موظف آخر .. وخرج ، ثم تبعه عزت وهو يتثاءب ، ويتمتم : ـ ان جو الغرفة .. خانق .. انى ذاهب لدورة المياه » .

ومضت ساعة . ولم يكن قد بقى فى المكتب من الموظفين سنيوى بطرس وعزيز .. وموظف آخر .. قال لابراهيم : ـ

الا تريد انت الآخر ان تشرب ؟ » .

فرمى الموظف القلم من يده ، ونهض نائلا : ـ بالطبع .. وهل هناك من يكره الماء ؟

وبعد خروجه ، التفت ابراهيم الى عزيز وصاح ووجهه يرتعش من الغضب : ـ « أرأيت ؟ .. لقد دهوالله فى الدفترخانة .. انا لا افهم ـ ودق بقبضة يده على المكتب ـ كيف يستطيعون البقاء معه هناك ؟ .. اقسم بالله وانى .. ساوقع على كل منهم جزاء بثلاثة ايام » .

وقفل ادراج مكتبه فى عنف .. واندفع خارجا .

قال عزيز فى صوت خافت : ـ انه ذاهب الى المراحيض . » .

ثم ادار بصره فى المكتب .

كانت المكاتب خالية . هادئة ، والاوراق مبعثرة فوقها فى فوضى كئيبة ، واشعة الشمس تنعكس على حقدانها البنية ، وكرسى ابراهيم افندى لا يزال يهتز ، وبطرس يعض طرف القلم باسنانه .. وعيناه تحملقان فى كل شيء .. وخيل لعزيز انه يرى هذه الاشياء لاول مرة . لقد بدت امامه

عزيز غير مألوفة ، والتفت الى بطرس وقال مشيرا بيده الى المكاتب
ـ « مثل الآلة التي تتوقف عن العمل .. لا فائدة منها .. لم لم تذهب معهم ؟ » .

اخرج بطرس القلم من فمه ، وأجاب مبتسما ـ « اذهب .. اين ؟ .. تقصد الدفترخانة .. انها كالسجن » .

حنى عزيز رأسه ـ « فعلا انها مكان عفن .. ان كلا منهم سيحكم عليه ثلاثة أيام » .

ومر باصبعه على تجاعيد وجهه ، وعاد في تفكير ـ « هل تعرف ؟ .. انه لم يصدر ضدي يوم جزاء واحد .. وهل تعرف اني دفعت ثمنا كبيرا في ذلك ؟ .. من التملق .. والتذلل .. ولولا ذلك .. اوه .. انه عمر طويل .. حياة كاملة .. » .

قال بطرس ـ « الحياة دائما هكذا » .

قال عزيز منفعلا ـ دعك من هذا الكلام السخيف .. اسمع ساقول لك نصيحة تنفعك .. اقرأ كثيرا .. حتى تخفي ملامح الذعر والانكماش التي تبدو على وجهك .. وضع في ذهنك انه يمكنك ان تأخذ حقك كاملا .. آه .. لو تعود بي الحياة عشر سنين فقط .. » .

قال بطرس ـ وماذا تفعل بها ؟ »

قال عزيز ، وعيناه تلمعان ـ « افعل بها ؟ .. افعل .. لا ادري .. اقسم بالله اني لا اعرف .. » .

وعاد ابراهيم افندي .. ظل لحظة واقفا بالباب .. يدير عينيه في المكتب ، ثم استقر نظره على وجه عزيز ، خيل اليه انه لمح تغييرا ساحرا في عينيه المحمرتين .. قال وهو يتجه الى مقعده ـ لم تنظر الى السماء هكذا ؟ » .

ضحك عزيز وقال ـ « سماء ؟ .. كيف اعاديك ؟ .. وليست لي القدرة على ذلك .. » .

وسكت برهة ثم عاد يقول ـ « لم يبق سوى عام .. عام واحد .. واحال الى المعاش .. مدة خدمة نظيفة تماما .. ماذا يريد الانسان غير ذلك ؟ .. » .

قال ابراهيم وهو يغير باصبعه على المكتب ـ « المراقب .. وافق على توقيع الجزاء عليهم .. » .

مرت برهة صمت .. لم يكن يسمع فيها سوى انفاس بطرس .. ونقرات ابراهيم على المكتب .. ثم عاد يقول وقد بدت على وجهه سحابة خفيفة من الغضب ـ

« كان يجب ان يحدث ذلك .. لم يكن هناك طريقة اخرى .. فالعمل اولا وقبل كل شيء » .

قال عزيز ـ « هو ما نقول .. العمل .. وماذا حدث بعد ذلك ؟ .. كما ترى .. المكاتب خالية » .

قال بطرس ـ وماذا في ذلك ؟ .. اننا سنستطيع نحن الثلاثة ان نقوم بعمل المكتب » .

صمم عزيز شفتيه وعاد الى عمله ، قال بعد برهة قصيرة ـ

« بالطبع يا بني نستطيع .. ونستطيع أن نرمي بانفسنا من النافذة !! » .